الفصل السابع
نصر المؤمنين

كان المسلمون يتحرقون شوقاً إلى مكة ، وللطواف بالكعبة ، وخاصة المهاجرون منهم ، حيث ازداد بهم الحنين إلى مدينتهم ، وما خلفوه فيها وراءهم، من الاهل والولد والتجارة والأملاك . وانقضى عام على صلح الحديبية ، وحل موعد العمرة ، حسب شروط الصلح . وكان رسول الله (ص) يتوخى أغراضا عديدة من دخول مكة لقضاء العمرة ، بعد أن حرم منها في العام المنصرم : فكان يريد أن ترى قريش تمسك المسلمين بدينهم ، وحبهم لنبيهم ، وسيادة النظام فيهم ، والتعاون والتآخي بينهم ، وتقديسهم للكعبة ، وقوة الإيمان فى قلوبهم.

وسرعان ما نادى الرسول (ص) في صحبه أن يستعدوا للمسير إلى مكة . واتجه على رأس ألفين من المسلمين ، لا يحملون إلا السيوف فى أغمادها . وخوفاً من غدر المشركين ، أعد مائة فارس مسلح ، وأرسلهم إلى المنطقة المجاورة لمكة ، لا يتخطون حرمها ، وانما يتدخلون لحماية المسلمين ، إذا دعت الضرورة إلى ذلك وساق أمامه الأضاحي (الهدى) ، وهي ستين ناقة ، تنحر في مكة . إنها مظاهرة سلمية ، تدخل مكة ، مهللة مكبرة ، معلنة إيمانها بالله الواحد ،

لاتشرك به شيئاً . وخرجت جموع قريش ، فنصبت خيامها في السفوح والتلال ، المجاورة لمكة ، لاتريد اللقاء مع جموع المسلمين . وربما كان زعماء القوم يخشون سريان الإسلام في نفوس شبابهم ، ولهذا فضلوا البقاء ثلاثة أيام خارج مكة، يرقبون ، في دهشة وإعجاب، عودة محمد (ص) إلى مكة منصوراً ، بعد أن خرج منها ضعيفاً مطارداً، وقد أصبح قوياً ، يلتف حوله أصحابه ، يؤمنون به رسولا نبياً ، وقائداً وزعيما ، يهرولون وراءه ، في طوافهم حول الكعبة . ثم يقفون وراءه، يركعون ويسجدون ، كلما ركع وسجد . لقد كانت مظاهرة تحمل معاني النصر . نصر الله للمؤمنين ؛ فتزلزل الشرك في قلوب المشركين، وتدفعهم إلى التفكير في مصيرهم المحتوم، امام القوة المتزايدة للمسلمين.

ولما انقضت الأيام الثلاثة ، خرج محمد (ص)، يتبعه أصحابه ، تاركين أكبر الأثر في نفوس المشركين : فقد اعتنق الإسلام بعد الزيارة مباشرة ، (خالد بن الوليد) ، وحاول رجال قريش أن يردوه عن الإسلام ، فأبى ، وقال : « لقد استبان لكل ذي عقل أن محمداً ليس بشاعر ، ولا كاهن، وأن كلامه من كلام رب العالمين ، فحق على كل ذي لب أن يتبعه » ، ثم خرج من مكة ، ولحق بمحمد وأصحابه . وكذلك اعتنق الإسلام (عمرو بن العاص)، وحارس الكعبة (عثمان بن طلحة) ، وتبعهم من أهل مكة الكثيرون ،

لقد أتاحت أيام الهدنة ، بعد صلح الحديبية ، للإسلام ان ينتشر بين عدد كبير من القبائل ، حتى بين قريش نفسها ، وأصبح المسلمون

أكبر قوة ، متحدة متعاونة ، في جزيرة العرب . ولم يبق أمامهم إلا أن يأخذوا مكة . ولكن ليس إليها من سبيل، مادام الصلح قد أوقف الحرب لسنوات عشر . وأراد الرسول (ص) أن يكون وفياً بعهده ، إلا أن قريشا نقضت عهدها ، وأعطت المسلمين العذر في نقض الهدنة ، والعودة إلى حالة الحرب : وذلك أن بني بكر ، حلفاء قريش، أرادوا أن يأخذوا بثارات قديمة من بني خزاعة ، حلفاء المسلمين ،وشاركت ، في هذا العدوان على بني خزاعة ، قبيلة قريش، مما يخالف صلح الحديبية . وهاجم بنو بكر ، تساعدهم قريش، بني خزاعة ، وأوقعوا فيهم خسائر كبيرة، فالتجأت خزاعة إلى البيت الحرام ، واستنجدت بحليفها ، محمد (ص) وما أن سمع محمد (ص) بالنبأ حتى عزم على فتح مكة ، ووضع حداً نهائي لتلاعب قريش ، وخياناتها للعهود والمواثيق ، وأدركت قريش سوء فعلتها ، وخطورة موقفها ، فأوفدت أبا سفيان إلى المدينة ، ليصلح الوضع ، ويثبت العهد والصلح ، فلم يجد بين المسلمين ، من كبار الصحابة ، من يشفع له عند النبي (ص) ، ليقابله ويحادثه في الموضوع ـ وأخيراً نصحه (علي بن أبي طالب) أن يعود إلى مكة وقال له: « والله ، يا أبا سفيان ، لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه . فعاد أبو سفيان، ليخبر قريش بما حدث .

أمر الرسول (ص) أصحابه أن يستعدوا للخروج ، ولكنه لم يفصح عن وجهة الزحف . وأرسل الى القبائل المسلمة ، المجاورة ، أن تستعد للمسير، وفي الوقت المحدد . أعلن محمد (ص) أن الزحف موجه إلى مكة ، وكان ذلك في شهر رمضان ، من السنة الثامنة للهجرة ، وبث

عيونه ودورياته المسلمة، ليحول دون وصول أنباء مسيره الى مكة، وكانت جموع المسلمين تزداد، كلما أمعنت في المسير نحو مكة، لانضمام رجال القبائل إليها في الطريق، وقد بلغت عدتهم عشرة آلاف رجل، يقودهم الرسول الكريم (ص).

ظل خبر المسيرة سراً، لم تعلم به قريش، وإن كانت تشعر بأن هجوم المسلمين على مكة آت لا ريب فيه، ولكنها لم تحدد زمناً معيناً لهذا الهجوم. وكان بعض رجالها قد أعلنوا إسلامهم، وخرجوا ليلحقوا بالمسلمين في المدينة. وإذا بهم يلاقونهم في الطريق إلى مكة، فينضمون إليهم. ومن هؤلاء (العباس)، عم النبي (ص). وعلى بعد يسير من مكة، عسكر المسلمون، فأمر الرسول (ص) بإيقاد النيران فأوقدوها على مسافات طويلة، وبأعداد كبيرة، فأضاءت الأفق، وزلزلت لرؤيتها قلوب أهل مكة، وهم لا يدرون على وجه التحقيق من يكون أصحابها؟ وماذا يريدون؟ وخرج بعض الرجال يستطلعون الخبر، وكان منهم: (أبوسفيان) و (بديلي بن ورقاء)، فظن هذا الأخير أنها خزاعة، تريد الثأر والحرب، فقال أبوسفيان: «خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.» ومر بها العباس، وكان قادماً من معسكر المسلمين، على بغلة النبي، يريد مكة، لإقناع قريش بالاستسلام، دون قتال، حقناً لدماء أبنائها.

وأخبر (العباس) (أبا سفيان) بالخبر، ونصحه أن يلجأ للرسول،

قبل أن يصيبه مكروه ، فقبل ، وسار معه ، ومر بنيران المسلمين . ورآه عمر بن الخطاب ، وأسرع إلى خيمة النبي (ص) ، يستأذنه في ضرب عنقه. ولكن محمدا (ص) طلب إلى (العباس) أن يحتفظ به في خيمته إلى الصباح . وفي الصباح ، أعلن (أبو سفيان) إسلامه ، وجعل الرسول (ص) دار أبي سفيان أمانا لكل ملتجيء اليها ، فقال : « من دخل دار أبي سفيان ، فهو آمن ، ومن أغلق بيته ، فهو آمن ، ومن دخل المسجد ، فهو آمن » وأمر الرسول (ص) ، عمه بحجز (أبي سفيان) في مضيق الوادي ، ريثما يستعرض القوة ، وينظم دخول مكة ، ويوزع التعليمات . ورأى (أبو سفيان) حينئذ قوة المسلمين ، يستعرض كتائبها الرسول القائد ، فالتفت إلى العباس ، وقال له : « ما لأحد بهؤلاء من قبل ، ولا طاقة . والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما » . فأجابه (العباس) « يا أبا سفيان ، إنها النبوة » فقال : « نعم » . وأسرع إلى مكة ، قبل مسير المسلمين إليها ، وكانت قريش مضطربة خائفة ، لا تدري ماذا تفعل ؟ وإذا بصوت أبي سفيان يرتفع مناديا : « يا معشر قريش ، هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم . فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن » . فبهت القوم ، وشتمته زوجه ، هند ، وقالت له : « قبحت من طليعة قوم » ، وأهابت بقومها أن يقتلوه . ولكن أبا سفيان عاد يردد: من أغلق عليه بابه ، فهو آمن ، ومن دخل المسجد ، فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان ، فهو آمن . »

قسم الرسول (ص) قواته ، قبل دخول مكة ، أربعة أقسام ، يدخل كل منها إحدى جهات مكة : فجعل قسما بقيادة (الزبير بن

العوام) ، يدخل من الشمال. وقسما ، بقيادة (خالد بن الوليد)، يدخل من الجنوب ، وقسما ، بقيادة (سعد بن عبادة) ، ويتألف من الانصار ، ويدخل من الغرب . وقسما ، بقيادة (ابي عبيدة ابن الجراح ، ويضم المهاجرين ، ويدخل من الشمال الغربي . واوصاهم جميعاً ان يحاولوا جهدهم ان يدخلوا مكة سلما ، والا يريقوا دماً .

غزوة حنين سنة ٨ هـ

كانت قبائل هوازن تقيم إلى الجنوب الشرقي من مكة ، وعلى مقربة منها ، وعندما وصلها خبر دخول المسلمين مكة ، خشيت أن يزحف محمد على منازلها ، وأن يضمها إلى حظيرة الإسلام . وبحث زعماؤها الأمر مع قبيلة ثقيف ، وقرروا حشد قواتهم ، ومهاجمة المسلمين ، ولم يتخلف من بطون هوازن غير بني كعب وكلاب ، وقاد هذه القوة (مالك بن عوف) ، وأنزلها وادي أوطاس (حنين) ، وجمع خلفها النساء والأطفال والأموال ، ليستميت المقاتلون في الدفاع عنهم . وقد انتقد (دريد بن الصمة) ، وهو محارب شهير ، وشيخ كبير ، خطة مالك ، وقال له : « إن كانت الدائرة لك ، لم ينفعك إلا رجل برمحه وسيفه ، وإن كانت عليك ، فضحت في أهلك ومالك . » ولكن (مالك) أصر على خطته ، وهدد هوازن بالانتحار ، إن لم تنفذ ما يأمر به ، فتابعوه . واحتل بقواته قمم المرتفعات، المطلة على الوادي ،

لرمي المسلمين بالنبال ، ثم للقيام بهجوم عام .

وصلت أنباء حشود هوازن وثقيف، إلى مكة، وتأكد منها رسول الله (ص)، بواسطة (عبدالله الأسلمي)، الذي ذهب، حسب أوامر الرسول، واطلع على حشود هوازن وثقيف، فأخبر المسلمين بذلك . فخرج محمد (ص)، على رأس اثني عشر ألفا، وعبروا وادي حنين، فجراً، وما إن توسطوه، حتى امطرهم المشركون بوابل من نبالهم، فتراجعت مقدمتهم، فأحدثت ارتباكاً في الصفوف . وزاد الأمر حرجاً انحدار المشركين بعنف، وقيامهم بهجوم عام، وبدأ المسلمون يتراجعون، في فزع، لما اصابهم نتيجة هذه المباغتة، حتى اختلط الحابل بالنابل، وركبت الإبل بعضها بعضاً، ولم تنفع صيحات محمد (ص) بأصحابه، وهو يقول : «هلموا إلي، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبدالله» . وكان الوضع ينذر بمصير سيء لجيوش المسلمين، وحاول (شيبة بن عثمان ابن طلحة) اغتيال محمد، ثأراً لأبيه . الذي قتل في غزوة أحد، وكان يقول ساعتئذ : (اليوم أدرك ثأري من محمد) . وكانت هذه النتيجة المؤلمة درساً للمسلمين، لما اصابهم من غرور بكثرة عددهم، في بداية المعركة .

ثبت محمد (ص) مع عشرة . بينهم عمه (العباس)، الذي صار ينادي : «يا معشر الأنصار، يا معشر المهاجرين، يامن بايعوا النبي تحت الشجرة، إن محمداً حي، فهلموا... » . وقد استجاب نفر من المسلمين

إلى النداء، وعاد كل منهم حاملا سيفه وترسه، تاركاً ما يثقل حركته، من درع أو بعير. وتجمع حول الرسول (ص) حوالي مائة مسلم. وكان الصباح قد أشرق، وصمد محمد بأصحابه، بل بدأ هجومه بهم، وتزايد عددهم، وخفت حدة هجوم المشركين. وتسامع الناس بثبات محمد. فرجعوا إليه، يلتفون حوله، ويشددون هجومهم على هوازن وثقيف، وانقلبت الهزيمة نصراً. والتراجع زحفاً، وتقهقر المشركون، في اتجاه الطائف. وأخذ المسلمون يطاردون الفلول المنسحبة، وأوقعوا بها خسائر فادحة.

جمع محمد (ص) الأسرى والسبي والغنائم، وأرسل كل ذلك إلى موضع، قرب مكة، يسمى الجعرانة، تحت الحراسة. وكانت الغنائم مما لم يغنم المسلمون لها مثيلا من قبل، حيث قدرت باثنين وعشرين ألف بعير، وأربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، وستة آلاف نسمة من السبي والأسر. وقد وصف القرآن الكريم موقف المسلمين، يوم حنين، بقول الله تعالى: «لقد نصركم الله في مواطن كثيرة، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم، فلم تغن عنكم شيئاً، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت، ثم وليتم مدبرين، ثم أنزل الله سكينته على رسوله، وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم تروها، وعذب الذين كفروا، وذلك جزاء الكافرين».

وكان (مالك بن عوف) قد فر، مع الكثيرين من مقاتلة المشركين، إلى الطائف، يحتمي فيها عند حلفائه من بني ثقيف، وأراد محمد (ص)

أن يكون النصر كاملا ، فسار بجموعه إلى الطائف ، وضرب عليها الحصار . وكانت هذه المدينة محصنة تحصيناً متيناً ، وسكانها ، من ثقيف ، أهل خبرة ودراية بالحروب . وقد أصاب أهل الطائف بنبالهم عدداً من المسلمين ، فقتلوا ثمانية عشر شهيداً ، وجرحوا عدداً أكبر ، فأمر الرسول (ص) أن ينتقل المعسكر إلى مكان بعيد عن مرمى النبال .

واستمر الحصار شهراً . ولما أرسلت قبيلة بني دوس ، وهي إحدى القبائل المقيمة في جنوب مكة ، إلى المسلمين بعض آلات الحصار والرمي ، ضرب المسلمون الطائف بالمنجنيق ، وحاولوا نقب أسوارها ، بواسطة الدبابات التي يختفي الجند فيها . ولكن أهل الطائف أحرقوها ، بقطع من الحديد المحمي بالنار . وأخفقت محاولات فتح الطائف . وفر إلى المسلمين من الطائف حوالي عشرين رجلا ، علم الرسول منهم كثرة الذخيرة والمؤونة في حصون الطائف ، مما يمكنها من الصبر على الحصار طويلا ، ورأى أن الأشهر الحرم قد قربت ، ففك عنها الحصار ، خشية أن يصيب المسلمين التعب والملل ، ورغبة في العودة إلى من خلف وراءه ، عند الغنائم والسبي . وترك الرسول إسلام ثقيف للزمن ، خاصة وأن عدداً منها اعتنقوا الإسلام . ولم يطل أمرها حتى جاءت معلنة إسلامها .

عاد الرسول (ص) مع أصحابه إلى منطقة تكديس الغنائم ، وبدأ عملية التوزيع ، وأجزل العطاء لحديثي الإسلام ، من المؤلفة قلوبهم : أبي سفيان ، وأمثاله . وبعد أن انتهت عملية التوزيع ، جاءه وفد من هوازن يعلن الإسلام ، ويطلب رد سبيهم إليهم ، فقام الرسول بين أصحابه

وقال : «ماكان لي ، ولبني عبدالمطلب ، فهو لكم .» فقال المهاجرون : «وماكان لنا، فهو لرسول الله » . وقال الأنصار مثل هذا القول . اما من تمسك بحقه من سبي هوازن، فقال له الرسول: «أما من تمسك منكم بحقه من السبي، فله بكل إنسان ستة فرائس من أول سبي اصيبه»، فرد المسلمون كافة : « سبي هوازن إلى أصحابه » .

ومما هو جدير بالذكر ، في هذا المقام، أن نفوس بعض الأنصار قد تغيرت من توزيع الغنائم بكثرة على أهل مكة . ولما نقل (سعد بن عبادة) الخبر إلى الرسول (ص)، امر بجمع الأنصار ، ثم دخل إليهم ، وحدثهم بما بلغه عنهم، وقال : « أوجدتم يامعشر الأنصار في لعاعة (الشيء اليسير) من الدنيا تألفت بها قوما، ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضون : يامعشر الأنصار ، أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً ، وسلكت الأنصار شعباً ، لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار » فسرى عن القوم ، وظهر البشر على وجوههم ، وأصابهم الندم ، لما جال في نفوسهم ، وقالوا . « رضينا برسول الله قسما وحظاً»

دخل الرسول (ص) مكة ، بعد توزيعه للغنائم، معتمرا ، واستخلف على مكة (عتاب بن أسيد)، وترك معه (معاذ بن جبل) ، ليعلم الناس القرآن ، ويفقههم في الدين . واتجه ، بعد ذلك ، مع الأنصار والمهاجرين

إلى المدينة ، حيث أخذت وفود القبائل تأتي معلنة إسـلامها بين يدي رسول الله (ص)، ومنهم وفد قبيلة طي. وكان النبي قد أوفد (عليا) إليها، فهدم صنمها ، وعاد ببعض الغنائم والسبي ، وبينهم (سفانة بنت حاتم الطائي) المشهور بكرمه في الجاهلية ، وعندما عرفها محمد (ص)، وذكر ما عرف عن أبيها من كرم ، أطلق سراحها ، وأنعم عليها بالعطاء والكسـوة . فقصدت الشام، حيث كان أخوها، عدي، قد فر إليها بنصرانيته، فلما ذكرت له صنيع الرسول (ص) معها ، رجع، واعتنق الإسلام .

غزوة تبوك ٩ هـ

وصلت إلى الرسول (ص) أنباء حشود من قبل الروم والعرب ، المحالفين لهم في بلاد الشـام ، وعلى حدود الحجاز في الشمال ، فنادى بالجهاد ، مستهدفاً سحق الخطر في مهده ، والتمهيد لتأمين حـرية نشر الإسلام ، وتقوية معنويات القبائل الحديثة العهد بالإسلام، ومحو آثار انسحاب المسلمين ، في موقعة مؤتة .

بلغت قوة المسلمين، في هذه الغزوة ثلاثين ألفا، بقيادة الرسول (ص)، وسمي هذا الجيش بجيش العسرة ، كما سميت الغزوة بهذا الاسـم ، لما أصاب الناس في ذلك العام من العسرة واشتداد الحر ، والجفاف . وأخذ المنافقون يثبطون الهمم ، ويقولون : « لا تنفروا في الحر » . فنزل قوله تعالى . « وقالوا لا تنفروا فى الحر ، قل نار جنهم أشـد حرا ، لو كانوا

يفقهون » . وبلغ الرسول (ص) ان جماعة من الحاقدين والمنافقين يجتمعون في دار سويلم اليهودي ، يتآمرون ، لتثبيط عزائم المسلمين ، ونشر روح التخاذل بينهم ، فارسل من أحرق البيت على من فيه ، فخرج أولئك منه ، وهو يشتعل ، ونجوا ، ولكنهم تلقوا درسا لم ينسوه .

تحمس المسلمون الأغنياء، فدفعوا جزءا كبيرا من أموالهم في تجهيز الجيش، ومن هؤلاء : (عثمان بن عفان) . وابقى الرسول بالمدينة بعض الفقراء ، ممن أرادوا الجهاد ، ولم يجد مايحملهم عليه ، فتولوا ، وأعينهم تفيض من الدمع، لأنهم لم يستطيعوا السير مع رسول الله إلى الجهاد. ونظم محمد (ص) شؤون المدينة : فاستخلف عليها (محمد بن مسلمة) ، كما ترك فيها (علي ابن أبي طالب) ، ليقوم ببعض الأمور ، وأعاد القوة ، التي خرجت، بقيادة (عبدالله بن أبي) ، وامره أن يبقى بالمدينة . ويبدو أنه لم يكن واثقاً من إخلاصه .

تحرك الجيش ، الذي لم تشهد جزيرة العرب من قبل مثيلا له : ثلاثون ألف مقاتل ، يغادرون الحجاز ، في اتجاه بلاد الشام ، وكانوا غالباً مايسيرون ليلا ، ويستريحون نهارا ، لشدة الحر ، حتى وصلوا تبوك ، وكان الروم قد سحبوا منها حشودهم إلى الشمال ، بعد أن علموا بضخامة القوة ، التي زحف المسلمون بها . واقام الرسول ، مع قواته ، على حدود الشام ، يقوى عندها نفوذ الإسلام ، ويرتبط مع أهل المنطقة بعهود وولاء . وأرسل وفدا إلى (يوحنا بن رؤبة) ، صاحب أيلة ، في شمال

الحجاز، وشرق خليج العقبة، فأقبل بنفسه إلى الرسول (ص)، وقدم الهدايا والطاعة، وصالح محمدا على دفع الجزية. كما صالح المسلمين أيضا أهل الجرباء، وأهل أذرح، وهما في شرقي الأردن، من أعمال البلقاء، على دفع الجزية.

وسار (خالد بن الوليد)، بأمر الرسول (ص)، مع خمسمائة فارس إلى دومة الجندل، (واحة الجوف حالياً)، وكان أميرها (أكيدر بن عبدالملك الكندي النصراني)، فأسره خالد. وأخذ كثيراً من الغنائم، ولحق بمحمد في المدينة، وحقن الرسول (ص) دم أكيد، وصالحه على الجزية، وأطلق سراحه، فعاد إلى قومه.

كان الرسول (ص) عندما وجه خالداً إلى دومة الجندل، قد عاد بجموع المسلمين إلى المدينة، بعد حوالي عشرين يوماً أقاموا فيها عند تبوك، وجاءه المتخلفون في المدينة يعتذرون، ومعظمهم من المنافقين والمخادعين، إلا ثلاثة منهم، هم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية. اعترفوا بذنبهم للرسول (ص)، ومع ذلك، أمر الرسول بالإعراض عنهم، فقاطعهم المسلمون مقاطعة تامة، حوالي خمسين يوماً حتى نزل قول الله تعالى: «لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار، الذين اتبعوه في ساعة العسرة، من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم، ثم تاب عليهم، إنه بهم رؤوف رحيم. وعلى الثلاثة الذين خلفوا، حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم

أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم ».

أما المنافقون ، فقد اشتد الرسول (ص) معهم في المدينة ، خشية أن يوقعوا بين المسلمين ، حتى أنه أمر بإحراق مسجد ، قرب المدينة ، كان يأوي إليه جماعة منهم، يحاولون أن يحرفوا كلام الله عن مواضعه، وأن يفرقوا بين المؤمنين . اما زعيم المنافقين (عبدالله بن أبي)، فقد توفي بعد غزوة تبوك بشهرين ، وفضل الرسول (ص) أن يكسب قلوب من حوله للإسلام ، ولهذا لم يرفض حين دعي للصلاة عليه ، بل صلى عليه، وقام على قبره ، حتى دفن . وبموت (عبدالله بن أبي) ، انهار ركن النفاق في المدينة ، وأخلص معظم جماعته التوبة لله تعالى .

عام الوفود

بعد عودة الرسول (ص) من غزوة تبوك ، اخذت وفود العرب، من جميع انحاء الجزيرة، تفد إليه معلنة إسلامها ، بعد أن فكروا طويلا في محمد ، ودينه الجديد، وانهارت أمام تفكيرهم جميع التهم التي ألصقت بالإسلام ورسوله، ووجدوا ان الإسلام لا ينتزع منهم زعامة، ولا إمارة، وإنما يدعوهم إلى وحدانية وأخلاق ، لا ينكرهما العقلاء ، ولم يجدوا في النبي (ص) حاكماً يطمع في حكمهم ، ومستبداً يسخرهم لأغراضه ، ويأخذ أموالهم لنفسه ، وإنما وجدوا فيه مثلا للتواضع ، والبساطة في

العيش، والزهد في الحياة، والبعد عن كل مطمع شخصي، تنهار أمام إيمانه قوات الشرك، وتتوحد قلوب، لم يكن ليوحدها إلا هذا الدين، الذي أتى به محمد (ص)، فمالت قلوبهم إليه، وتطلعت أبصارهم نحوه، وتوافدوا، أفراداجماعات، يعلنون بين يديه إسلامهم، حتى سمي هذا العام (عام الوفود)، لكثرة من اتى منهم باسم قبائلهم. وكان في مقدمة هذه الوفود وفد ثقيف، التي طالما حاربت الإسلام، ووقفت تصد نبيه، وها هي اليوم تسرع معلنة طاعتها وإســلامها، طالبة إبقاء صنمها اللات، ولو لمدة يســيرة. ولكن محمدا (ص) يرفض ذلك، لأنه لايتساهل في ركن أساسي من اركان الإسلام، فهو نبي التوحيد. ولما طلب وفد ثقيف ان يعفيهم رسول الله (ص) من تحطيم أصنامهم بأيديهم، بعث معهم (ابا سفيان بن حرب) و (المغيرة بن شعبة)، فقاما بتحطيم الأوثان والأصنام، وأعظمهـــا اللات، ودخلت بذلك الطائف في حظيرة الإســـلام. ولم يبق، بعد عام الوفود، إلا قلة من المشركين، لاتستطيع الوقوف أمام التيار الجارف للدين الجديد.

وحين كانت وفود القبائل تترى على المدينة، كان أبو بكر يخرج بالمسلمين، الراغبين في أداء فريضة الحج، بإذن الرسول (ص)، متجها إلى مكة، وكان هذا آخر موسم من مواسم الحج؛ يلتقي فيه حول الكعبة المسلمون والمشركون. وإذا كانت الأصنام قد حطمت حول الكعبة، عند الفتح، إلا ان مشركي العرب مازالوا يقصدون الكعبة، ليؤدوا مناسك وثنيتهم وطقوسها، وليس لأحد أن يمنعهم. فهم في بلد حرام، وفي

شهر حرام ، وبين الكثيرين منهم وبين محمد عهودا ومواثيق .

قرر النبي (ص) أن يضع حداً للشرك في جزيرة العرب ، وأن يجعل الكعبة محجاً للموحدين فقط ، وبيتاً للمسلمين ، دون المشركين ، فأرسل ابن عمه (على بن أبى طالب)، يلحق أبا بكر في الحج ، ليخطب في الناس. وفعلا وقف (عـــلي) في جموع العرب . من آمن منهم ، ومن لم يزل على شركه ، فقرأ عليهم آيات من سورة التوبة ، ثم قال : (أيها الناس إنه لايدخل الجنة كافر ، ولايحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله (ص) عهد ، فهو إلى مدته» . وهكذا كانت آيات سورة التوبة ، التي نزلت بعد غزوة تبوك ، تضع الحد النهائي للشرك بين الناس ، وتقيم الأسس المعنوية ، والقواعد الروحية ، لدولة الإسلام ، وليكون أبناء هذه الدولة على عقيدة واحدة ، دعامتها الإيمان بالله الواحد . وإذا كان الإسلام قد أعلن مبدأ التعايش مـع اليهود والنصارى ، فإنما كان ذلك استناداً إلى إيمان هؤلاء بالأساس المشترك وهو الإيمان بالله الواحد . أما الشرك بالله فيرى الإســلام فيه شراً للمجتمع ، وتتمثل فيه مخازي الجاهلية ، ويهدم الركن الأساسي ، الذي تقوم عليه دولة الإسلام ، وفلسفتها في الوجود . ولهـــذا كانت حرب للشرك يسوغها العقل والمنطق ، وليس فيها منافاة لحرية الرأي ، ذلك لأن أي دولة تسوغ لنفسها إعلان الحرب على كل ماترى فيه خطراً

على مجتمعها ونظمها ودستورها ، حتى ولو كان خارج حدودها ، فكيف إذا كان على أرضها وبين أبنائها ؟ ولهذا كان من الطبيعي ان يقف الإسلام ، بعد أن اعتنقه معظم سكان جزيرة العرب ، هذا الموقف من المشركين .